حمّى الشعوبية

د. ماجد محمد الأنصاري
باحث قطري
majedalansari@hotmail.com
@majedalansari

بين الأكراد والكتالونيين تتجلى خطورة حمى الشعوبية التي اجتاحت العالم في أعقاب أفول نجم العولمة الذي بزغ منذ سقوط الاتحاد السوفييتي واستئثار الولايات المتحدة بالعالم قطباً وحيداً. ومع اختلال عرش العالم في واشنطن بصعود ترمب وتقدم قوى مختلفة لملء الفراغ تعود إلى العالم حمى الشعوبية التي كان انتشارها بهذا الشكل آخر مرة بداية أحداث الحرب العالمية الثانية. الشعوبية هنا يقصد بها الشكل السلبي والعنصري من القومية، الانتماء العنصري لشعب معين بشكل يصنع العداوة تلقائياً مع بقية الشعوب.

كنت أجلس في بلكونة الجمعية العامة الأمم المتحدة حينما أدلى ترمب بخطابه أمام المستفز من على منبر المنظمة التي تأسست «نظرياً» على فكرة السلام الدولي والتعاون بين الشعوب نحو مستقبل زاهر للبشرية. وقف ترمب ليحاضر على قادة العالم حول خطر الاشتراكية وكيف أدت إلى انهيار الدول التي اختارتها منهجاً ليتبع ذلك بتمجيد الشعوبية باعتبارها حقاً مشروعاً وسبيلاً لبناء أوطان مزدهرة. وأخيراً توج ترمب خطابه الشعوبي المتطرف بتهديد صريح بمحو كوريا الشمالية من على الخارطة ليسود القاعة ضجة مفاجئة، الموجة الشعوبية هذه والتي أتت بترمب إلى السلطة وصعدت باليمين المتطرف في ألمانيا ليسجل أعلى انتصار منذ نهاية الحرب العالمية عززت مطامع أكراد العراق وكتالون أسبانيا بوطن مستقل يتوجون به مسيرة عقود من محاولات تقرير المصير، الصورة الرومانسية طبعاً هي حديث عن شعب مظلوم محروم من وطن يتنفس الحرية عبر صناديق الاستفتاء ولكن الواقع هو خلل جيوسياسي قد يكون شرارة لصراعات إقليمية خطيرة.

إقليم كردستان العراق يعيش منذ عقود حالة استقلال عملي بحكومة مستقلة وأجهزة أمنية وجيش وعلاقات دبلوماسية مع العالم أجمع. القصة في كتالونيا مختلفة بعض الشيء ولكنها هي الأخرى تتمتع بعناصر من الحكم الذاتي والشخصية الثقافية المستقلة. إذن لماذا الآن يقرر الإقليمان فجأة أنهم ضاقوا ذرعاً بالدول التي تحكمهم وقرروا أن الوقت مناسب لتأسيس كيانات سياسية مستقلة بعيداً عنها؟

الجواب من شقين، الأول هو أن تنامي موجة الشعوبية عالمياً يحتم ارتفاعها في أقاليم تحمل هوية شعبية خاصة ويرفع بشكل كبير احتمالية نجاح استفتاء شعبي للانفصال. الأمر الآخر هو مناسبة الوضع الدولي لاستيعاب أزمات من هذا النوع. في ظل ارتباك واشنطن وتصارع قوى مختلفة على مصالح مختلفة حول العالم يبدو العالم مهيئاً لاستقبال دول جديدة أو على الأقل منشغلاً عن الأزمة الناتجة عن دعوات الانفصال.

الفرق الأساسي بين كردستان وكتالونيا يكمن في المواقف الإقليمية، فبينما تبدي أوروبا قلقاً عالياً مما يحدث تتجنب الدخول في ما تعتبره شأناً داخلياً إسبانياً. أما في كردستان تعتبر تركيا وإيران بالإضافة للحكومة العراقية المركزية هذا الاستفتاء اعتداء على أمن المنطقة وليس العراق وحده مما دفع هذه القوى لاتخاذ إجراءات صلبة ضد حكومة الإقليم. وفي الوقت نفسه يمارس الكيان الصهيوني من جهة وأبوظبي من جهة أخرى نشاطاً داعماً للاستفتاء. بالنسبة لتل أبيب هذه فرصة لنشوء كيان شبيه بإسرائيل وأقرب لها سياسياً ويخلخل موازين القوى المخلخلة أصلاً في العالم العربي. أما أبوظبي فتجد الاستفتاء فرصة لضرب حكومة العدالة والتنمية وحكومة العبادي اللتين تشتركان في شيء واحد فقط وهو رفض الانضمام لجهود الحصار على قطر.

موجة الشعوبية لن تتوقف على حدود كردستان وكتالونيا فمن المتوقع أن نشهد موجة حركات إنفصالية عالمياً شبيهة بتلك التي حدثت مع انحسار الاستعمار عالمياً. وعلى الرغم من أن حركات التحرر حينها ينظر إليها اليوم بشكل إيجابي إلا أن معارك التحرر حينها كانت دموية بشكل استثنائي خاصة في مناطق الاضطرابات وغياب الاستقرار، على الحكومات المركزية التي تواجه دعوات انفصالية اليوم استباق معارك الانفصال بتحقيق المطالب وضمان العدالة واحترام الهويات الفرعية ولكن تجزيء المجزئ اليوم ليس خياراً سيأتي بخير على مستوى العالم.